لماذا سكتت «شهرزاد» عن الكلام المباح؟

إبراهيم محمود

لا نعرف عن شخصيّة شهرزاد في **ألف ليلة وليلة** سوى معلومات بسيطة.. فهي الابنة الكبرى لوزير الملك «شهريار» سفّاح النّساء. وقد كانت جميلة ومثيرة وقرأت الكتب والتّواريخ وسير الملوك المتقدّمين وأخبار الأمم الماضية. وقيل إنّها جمعت ألف كتاب من كتب التّواريخ المتعلّقة بالأمم السّالفة والشّعراء (ص ٨)[١]، وأنّها استطاعت أن تسرد حكايات مختلفة «عجيبة» للملك، في ألف ليلة وليلة، أنجبت خلالها ثلاثةَ أولادٍ ذكور منه، وعفا عنها في النهاية.

وما نعرفه أيضاً عنها، هو أنّها طلبتْ من أبيها الوزير أن يزوّجها من الملك «شهريار» الذي كان يأخذ بنتاً بكراً في كلّ ليلة فيفضّ بكارتها ويقتلها، وذلك مدّة ثلاث سنوات، حتّى فرغت المدينة من البنات، ولم يبق فيها سوى بنتي الوزير. فلمّا سمعت الكبرى بما يفعله الملك ببنات جنسها، طلبت الزّواج منه في محاولة منها لتخليصهنَّ من بين يديه.

فهل هذه المعلومات كافية لمعرفة الخلفيّة الفكريّة لشخصيّة «شهرزاد»؟ وهل نستطيع من خلال هذه المعلومات المحدودة، تكوينَ صورة واضحة على الصعيدين: الاجتماعي والنفسي لهذه الشّخصيّة؟ ولعلّ السّؤال الأهمّ في موضوعنا الذي نقاربه تأويليّاً هو: ماذا يعني سكوت «شهرزاد» عن الكلام المباح، عندما يدركها الصّباح في نهاية كلّ ليلة؟

١ ـ ضرورة الإصغاء

ليست «شهرزاد» امرأةً سهلة، أو عادية؛ ومن هنا ضرورة الإصغاء إليها.. فهناك مزايا عُرفت بها، ولو لم تتوفّر فيها لما كان هناك ما يُعرف الآن بـ **ألف ليلة وليلة**، ولما سمعنا بشخصيّة أصبحتْ صفةً لنمط من العلاقة الاجتماعيّة ونمطٍ من التّفكير.

١ ـ فقد كانت البنت الكبرى. ولعلّ مثل هذا التحديد قد لا يلفت نظر أحد؛ ولكن «الأكبر» له دوره في تلوين حركيّة العلاقات الاجتماعيّة؛ فالأكبر ـ في أحيان كثيرة ـ ذو رأسمال قيمي (معنوي) معتبر في المجتمع وفي الكلام وفي أداء مهمّة معيّنة يُلزم بها؛ والبنت الكبيرة، تُسْقَطُ عليها آمال أكثر، ويُنتظر منها ما لا ينتظر من غيرها، قولاً وفعلاً.

٢ ـ وكانت شهرزاد ذات حسن وجمال أخّاذ وقدٍّ واعتدال. والجمال المتناسق له ـ هو الآخر ـ قيمته الاعتباريّة في مجتمعنا. فعبارة «إنّ الله جميل ويحبّ الجمال» لها وقعُها ودلالتُها التّاريخيّان. الجمال ظاهري، والظّاهري حقيقة يُؤخذ بها. الجمال يمنح امتيازاً مجتمعيّاً لصاحبه في الجلوس بين النّاس، وفي الكلام. عندما نستمع إلى امرأة جميلة، فنحن نتمعّن في «رنين» حسنها، وباسمه نحاول الإصغاء، فكأنّنا هنا نصغي إلى ما يقوله جمالها. الجمال إذاً يلوّن الكلام، يزخرفه. وهو سلطة مؤثّرة.. ولو لم تكن «شهرزاد» جميلة، لكان من الجائز أن يتغيّر

(١) اعتمدت في كتابة هذا الموضوع على طبعة دار العودة، بيروت.

وضعها، فلا يصغي إليها «شهريار» وتصبح احتمالات قتلها أو إقصائها عن «التّاريخ» ـ في مثل هذه الحالة ـ أكثر وروداً.

٣ ـ وكانت شهرزاد ـ وهذا هو الأهمّ ـ ذات ثقافة عالية. ويبدو أنَّ هناك تركيزاً على هذا الجانب، وهو تركيز مقصود وموجَّه.

ذلك أنَّ قراءتها في الكتب المحدَّدة تمنحها القدرةَ على المناورة، واختيارَ الكلمات المؤثّرة، وتحديد الهدف بدقّة.

كما أنَّ لهذه القراءة قيمةً مجتمعيّةً اعتباريّة. ولعلّ عبارة «ألف كتاب» ـ التي أوردناها آنفاً ـ تشير إلى الكثرة، لا إلى الرقم نفسه. كما أنَّ اختيار الكتب من حيث المواضيع كافٍ في تحديده للإشارة إلى المهمّة التي تنتظر شهرزاد؛ فهي قد ألمّت بما كان يؤثّر في المحيط المجتمعي، وأتقنتْ لغته...

٤ ـ وشهرزاد ذات نسب محترم. فهي ابنة وزير يبدو أنَّه تقرّب من الملك فعرف أسرار قصره والتصق به. وهذا يعني أنَّ الكلام هنا يستمدّ قيمته من هذه العلاقة النَّسبيّة ويمنح «شهرزاد» مكانةً وحظوة لدى الملك «شهريار».

٥ ـ ويجب ألاَّ ننسى هنا إصرار «شهرزاد» على الزّواج من المستبدّ «شهريار»، وهي تُصرّ على ذلك من أجل بنات جنسها، ولتحريره هو نفسه من عقدته وبغضه للجنس «الآخر». والأهمّ من هذا وذاك، هو البعد الديني الإسلامي في عمليّة التصدّي هذه: فـ «شهرزاد» طلبت الزّواج من الملك المستبدّ، منطلقةً من قناعة ذات جذور دينيّة، وهي إمّا أن تكون فداء بنات المسلمين ـ إذا لم تفلح في مهمّتها ـ وإمّا أن تنجح في مهمّتها، فتَضع نهايةً لاستبداد الملك.

وأخيراً، لابدّ من القول إنَّ إصغاءنا لشخص ما ينطلق من عدّة اعتبارات متفاوتة في قيمتها:

١ ـ لأنّنا نريد سماع ما يهمّنا مباشرة..

٢ ـ لأنّنا نريد سماع ما يهمّنا بشكل غير مباشر..

٣ ـ لأنّنا نريد ما يثيرنا من الدّاخل، فنصغي إليه في عموميّته..

٤ ـ لأنّنا نريد ما يثيرنا، فيكون ما نصغي إليه مخاطباً لنا، في خصوصيّتنا، بشكل ما..

٥ ـ لأنَّ الإصغاء فاعل مجتمعي عام، ومَسرحةٌ للقول الإنساني، وهو بذلك ذو دلالة قيميّة...

وربّما كانت هذه الاعتبارات متوفّرة في «شهرزاد» كراوية مباشرة، وكخطاب موجّه إلى المستقبلين لهذا الخطاب.

١ ـ فما تقوله يهمّنا، لأنّها لا تنفصل عنّا في مُصَابها الإنساني.

٢ ـ وما تقوله يهمّنا، لأنّها تتداخل معنا، ونتداخل معها في النّهاية.

٣ ـ ولأنَّ مصابها عامّ، يهمّ الجنسين: الذّكور والإناث.

٤ ـ وهو خاصّ، فهو يهمّ الإناث أكثر ممّا يهمّ الذّكور. وهو كعلاقة مباشرة، يهمّ نوعيّةً محدّدة من الإناث، حين يحدث تأزّم اجتماعي...

٢ ـ صورة «شهرزاد»: حقيقة أم مجاز؟!

ليس المهمّ أن نعرف كلّ شيء عن «شهرزاد». فلو كانت شخصيّتها واضحة كلّ الوضوح، لما كان هناك داعٍ لمعرفة حكاياتها، بل لما كانتْ هناك إمكانيّة لقراءة **ألف ليلة وليلة**؛ فلقد نُقل إلينا ما يدفعنا إلى البحث عنها. ولو كانت شخصيّتها غامضة ملغزة كطلسم، لما حصلت عمليّةُ الجذب والإصغاء إلى حكاياتها. ويبدو أنَّ واضع الحكايات عَبْرَها مدركٌ لفاعليّة التوازن، ولتحقيق عمليّة الإصغاء. فتبدو صورة «شهرزاد» حقيقةً ماثلة أمام العين، ولكنّ المهمّة التي تتهيّأ لها تجعلها رمزاً. وهذا ما يمنحها حضوراً أكثر إغراءً، ويدفعنا لمزيد من الإصغاء.

فحقيقتها تتوضّح في حكاياتها التي تتسلسل، وصورتها تتكامل بمتابعتنا لحكاياتها تلك. وفي كلّ حكاية سرٌّ يخصّها، يثيرنا، فنسعى إلى الكشف عنه. فشخصيّتها التي تجمع بين الحقيقي والرّمزي موزّعة في حكاياتها التي تنسج أبعادها النفسيّة والاجتماعيّة والتّاريخيّة وتلوّنها.

٣ ـ عن سكوت «شهرزاد» عن الكلام المباح

حكايات «شهرزاد» غطّتْ ألف ليلة وليلة؛ وفي نهاية كلّ ليلة كان يدركها الصّباح، فتسكت عن الكلام المباح. والذي نعرفه من خلال حكاياتها، هو أنَّ الصّباح أدركهما في اللّيلة الأخيرة من لياليها، ولكنّها لمْ تسكت عن الكلام المباح. فقد عفا عنها الملك، وعاد إلى ما كان عليه سابقاً فرحاً سعيداً.. وهذا يعني أنَّ جمْعها لألف كتاب، يقابل ألف ليلة؛ واللّيلة الأخيرة غير محسوبة هنا، لأنّها كانت خاتمةَ اللّيالي وبدايةً لحياة زوجيّة مثمرة.

ولكن ماذا كان يعني إدراكُ الصَّباحِ إيّاها، ومن ثمّ سكوتُها عن الكلام المُباح مباشرة؟

وما هو الكلام المُباح؟ وما كان يعقبه بعد ذلك؟

يبدو أنَّ شهرزاد لم تكن تمارس الكلام الذي من شأنه لفتُ نظرِ الملك. وهذا الكلام لم يكن كلاماً عادياً، بل هو الكلام الذي يُنسي الملك واقعه، وتؤخّر به شهرزاد عمليّة قتلها، وتطيل الوقت الذي يساعدها على تحرير الملك رويداً رويداً من طغيانه وعنفه. إنّها هنا لا تسرد حكاية تلو أخرى، بقدر ما تراوغ للاستمرار في الحياة. كلام شهرزاد طُعْمٌ، بقدر ما هو محاولةٌ تقوّي أرضيّتها تدريجيّاً مع إضافة كلّ ليلة جديدة إلى أخرى. وشهرزاد واعية لمهمّتها، مدركة لجسامة قضيّتها، كممثّلة لـ «حوّاء» التي تعتبر سلبيّة بامتياز.

السّرد هنا نسج، وهو فخّ للإيقاع بالمستمع، ولاستئصال جذور فكرة الشرّ من رأسه بالكلام الموجّه:

> **الكلام قد يتحوّل إلى شبكة لاقتناص ضحيّة، لاقتناص المستمع. فعوض أن تُظهر العلامات ما يدور بخلد المتكلّم، تصير حجاباً يعسر خرقه، أو تصير بمثابة الحَبِّ المنثور على شرك الصيّاد، يحدث عندما يكون القصد من الكلام إيقاع المستمع في ورطة، ويحدث هذا بالخصوص عندما يكون المتكلّم عاجزاً عن نيل مراده بالقوّة فيعمد إلى الحيلة والمراوغة(٢).**

(٢) كيليطو، عبد الفتّاح: **الحكاية والتّأويل ـ دراسة في السّرد العربي** دار توبقال، ١٩٨٨ ـ ص (٤٠).

لكن أيّ كلام لجأت إليه شهرزاد؟

إنَّه الكلام العجائبي الغرائبي، كلامٌ يخرج الملك من واقعه، ويخلخل قواه العقليّة. وفي الوقت نفسه، فإنَّ هذه العجائبيّة، بقدر ما تبدو لاعقلانيّة، فإنَّها تبدو أيضاً عقلانيّة حين تقابلها لاعقلانيّة ما كان يفكّر فيه ويقوم به «شهريار». ومن هنا، فإنَّ حكايات «شهرزاد» تخترق غرائبيّة ممارسات «شهريار» بغرائبيّة مماثلة. إنَّه الكلام الذي يختار ساعته المناسبة ومواقعه النفسيّة. فعمليّة سرد الحكايات كان يُبدأ بها في الوقت الذي كان يستعدّ فيه «شهريار» للقضاء على ضحيّته؛ إنَّه الوقت الذي يسود فيه الصّمتُ العالَم، ويستسلم كلُّ امرئ لسلطان النّوم، وتبدأ «شهرزاد» هنا بسرد حكاياتها التي توصلها في كلّ ليلة إلى «حافة» الصّباح. شهرزاد هنا أقوى من شهريار! والكلام المباح هنا هو الكلام العجائبي الغرائبي، الكلام الذي يرادف ما بعد منتصف اللّيل، حيث يسود السّكون، ويكون اللّيل مسرحاً لكلّ «غريب وعجيب». وهذا يعني أنَّ السكوت عن الكلام المباح، هو إنهاء الكلام الذي فقد تأثيره، لأنَّ الظلام يبدأ بالتلاشي.

وبعد الكلام الذي يجزّأ، تستمرّ التهيئة لليلة القادمة. وتستسلم «شهرزاد» للنّوم، لتصحو بعد ذلك، استعداداً لليلة جديدة، لمغامرة جديدة، لمعركة جديدة. وهذا يعني أنَّ سكوتها لم يكن سكوتاً تماماً. بل هو بحث عن حكاية جديدة تواجه بها «شهريار» بعد أن أمضت ليلة كانت فيها المنتصرة، إذْ لم يصبها أذىً!

لكن يظلّ سؤال يلحّ علينا، وهو: هل تعادل «شهرزاد» الصّمت هنا؟ وهل أبيح لها أن تتكلّم كلاماً معيّناً؟ إنَّ الرّاوي لا يعلمنا بشيء من هذا كلّه. لكن عدم إعطاء معلومات كافية لا يعني بقاءها في دائرة الغموض. فإذا انطلقنا من هذا التصوّر، فلابدّ أن نجد أنفسنا في مواجهة غير سؤال لا جوابَ عنه، مثل: كيف بدأت شهرزاد سرد حكاياتها؟ كيف سمح لها شهريار بأن تسرد هذه الحكايات؟ ما الذي شدّه إليها؟ هل تسرد حكاياتها في مخدعه أم في إيوانه، وأختها إلى جانبها؟ هل من المعقول أن تمضي ألف ليلة وليلة، دون أن يعلم «شهريار» طوال هذه الفترة الزّمنيّة الطويلة نسبيّاً، أنَّها خلّفت منه ثلاثة أطفال؟...

الحكاية الشعبيّة تحدّد مقصدها مباشرة، ولا تدقّق في تقنيّة السّرد فيها. ولعلّ مثل هذا الإجراء هو الذي يمنحها تقنيّة خاصّة لا يمكن أن تُعطى لغيرها من أنواع الأدب الأخرى.

ويبدو أنَّ «شهرزاد» ـ شأنها في ذلك، شأن غيرها من بنات جنسها ـ كانت محكومة بالصّمت. فالكلام شأن ذكوري، وهو سلطة؛ والسّلطة عندما تتكلّم، فعلى الآخرين أن يصغوا إليها.

لكن شهرزاد اختارتْ كلاماً آخر، هو الكلام الذي يمنحها القدرةَ على الاستمرار، وهو الذي يشجّع شهريار نفسه على أن يعزّزها لكي تقوله. لكن الذي يلفت النّظر في شخصيّة شهرزاد هو أنَّها في أغلب حكاياتها كانت تقدّم لنا المرأة باعتبارها خائنة، أو ساحرة، أو لعوباً، أو ما يعادل ذلك.. وكأنَّها في موقعها الحركي، كانت ضد بنات جنسها؛ انتصرت عليهنّ، لا لهنّ ـ وكأنَّها أرادت أن تنطق بما كان «شهريار» يبتغيه من المرأة مباشرة. وكأنَّها في تصرّفها هذا، أثبتت عدم قدرتها على قول خلاف ذلك؛ وإنجابها لثلاثة ذكور يزيد من تأكيد ذلك. كأنَّها كانت «بيان الرّجل الموجَّه» ضدّ المرأة. «شهرزاد» انتصرت بيولوجيّاً، ولكنَّها خسرت كدلالة، كقيمة إنسانيّة.

شهرزاد نتاجُ مخيّلَةٍ ذكوريّة، و«انتصارُها» يُكْسب الاستبداد الشهرياري مشروعيّة واضحة!

لعلّ الرّاوي كان «بطريركيّاً»؛ كان «شهريار» نفسه، فأراد أن ينمذج شخصيّة كهذه، أن يجعلها رمزاً نحياه نحن في ذاكرتنا الجماعيّة، وفي تصوّراتنا المتخيّلة.. إنَّها تمثّل أنانيّة المرأة، شيطانيّتها، سخفها، ضعفها الميتافيزيقي، ولكن كما تصوُّرها المخيلة الشهريارية: ضدّ المرأة، وعن المرأة، ومن خلالها في الآن عينه!

فلو تكلّم رجل باسم المرأة، أو حلّ محلّها، لما كان هناك ما يشدّ الانتباه إليه، ولما كان هناك ما يُعرف الآن بـ **ألف ليلة وليلة** أو «شهرزاد وشهريار». «شهرزاد» هنا هي نتاج عصر، توليفيّة في تكوينها وحضورها الحكائي، نتاج مخيّلة ذكوريّة، في الغالب الأعمّ.

إنَّ بقاءها ليس من أجل غيرها، من بنات جنسها، وإنّما لتتناسل، لتظلّ شاهدة على هذه الحالة المنمذَجَة. فلقد كان القتل المستمرّ للنّساء سيؤدّي إلى انقراضهنّ في المجتمع..

البحث عن امرأة أصبحت شهرزاد هو «فلتة ذكوريّة مُسيّسة». في طريقة كهذه، لا يكون القتلُ المادي موجوداً؛ بل ثمّة قتل معنوي ويكون أكثر فتكاً من القتل الأوّل.. وهذا يعني أنَّ علينا ألاَّ نفرح بعلاقة شهرزاد مع شهريار، وبانتصارها المزعوم عليه، كما توحي لنا بذلك نهاية **ألف ليلة وليلة**. فبدءاً من هذا التّاريخ، يكتسب الاستبداد الشهرياري مشروعيّةً واضحة في موقفه تجاه المرأة. وتصبح «شهرزاد» لعنة تطارد بنات جنسها، لأنَّها تنمذجت: وذلك بدخولها الأدب والفلسفة والفنّ والأمثال.

لقد سكتت عن الكلام المباح، لتتغذى أكثر من المخيّلة الشهريارية، لتلتحم معه في صورتها السلبيّة، ثمَّ تنسلخ عنه، وتقول حكاية المرأة: حكاية سقوطها غالباً بشهادة المرأة ذاتها!

القامشلي ـ سوريا ـ